أبو العيناء..
(شيخ حسني) التراث العربي

obeikandl.com

(٣٢٢)

كان أبو العيناء الشاعر الساخر في مبتدأ حياته أحولا واستمر كذلك حتى الأربعين من عمره ، وكان يستهين ويسخر من احولال عينيه ، بل ويتحدث عن مميزات هذا الحول وكيف أنجاه من المآزق مع حبيبته التي تعلق بها :

حمدت إلهي إذ بلاني بحبها على حولي يغني عن النظر الشرر

نظرت إليها والرقيب يظنني نظرت إليه فاسترحت من العذر !

(٣٢٣)

بعد الأربعين أصيب أبو العيناء بالعمى ، لكنه لم ييأس أو يستسلم ، بل ظل ينظر إلى نصف الكوب الملآن راضيا ومفاخرا بموهبته الشعرية والعقلية ، وعبر عن ذلك قائلا :

إن يأخذ الله من عينيَّ نورَهما

ففي لساني وسمعي منهما نورُ

قلبي ذكيٌّ وعقلي غير ذي خَطَلِ

وفي فمي صارمٌ كالسيف مأثورُ

(٣٢٤)

عرضت على المتوكل جارية شاعرة فأمر أبا العيناء الشاعر أن يختبرها وكان ضريرا.

فقال للجارية : أتقولين الشعر كما يقولون؟

فقالت : نعم أقوله وأجيده .

قال أبو العيناء : إليك شطراً واحداً فأكمليه : الحمد لله كثيراً ..

فقالت الجارية : حيث أنشأك ضريراَ !

(٣٢٥)

تأخر أبو العيناء ذات مرة عن الحضور إلى مجلس الوزير إسماعيل بن بلبل، فسأله عن السبب؟، فقال: (سُرق حماري)، فقال له الوزير: (كيف سرق حمارك يا أبا العيناء؟

فقال: لم أكن مع اللص، فأخبرك!

(٣٢٦)

قيل لأبي العيناء: بقي من يُلقى؟

قال: نعم في البئر.

(٣٢٧)

قال له المتوكل: (كيف شربك للخمر؟)، فقال: (أعجز عن قليله، وأفتضح عند كثيره)، فقال له: (دع هذا عنك، ونادمنا)، فقال: (أنا رجل مكفوف، وكل من في مجلسك يخدمك، وأنا محتاجُ أن أُخدم، ولستُ آمنُ من أن تنظر إلىّ بعين راضٍ، وقلبك عليّ غضبان أو بعين غضبان، وقلبك راضٍ، ومتى لم أُميِّز بين هذين هلكتُ، فأختار العافية على التعرض للبلاء .

(٣٢٨)

اشتكى أبو العيناء ابن المدبر صاحب الخراج لأنه يؤخر راتبه، فقال له عبيد الله بن سيلمان :أنت اخترته ، يعني إنه الذي رشحه للمنصب ،فأسرع أبو العيناء يقول : وما عليّ في ذلك ؟ فقد اختار موسى من قومه سبعين رجلا فما كان منهم رجل رشيد فأخذتهم الرجفة ، واختار النبي (ص) ابن أبي سرح كاتبا فلحق بالكفار مرتدا ، واختار (علي) أبا موسى الأشعري حكما في التحكيم فحكم عليه!

(٣٢٩)

ولقيه بعض أصحابه في السحر فجعل صاحبه يتعجب من بكوره فقال له أبو العيناء: أراك تشركني في الفعل وتفردني بالعجب!

(٣٣٠)

دخل أبو العيناء بلدة، والصبية فيها يلعبون، فرموه بالحجارة، فوقع حجر على رأسه فشجه، فذهب أبو العيناء لأمير البلد يشكوهم له، فقال له الأمير: (في أي يوم دخلت؟)، فقال أبو العيناء: (في يوم نحس مستمر، وفي ساعة العسرة، ونزلت بواد غير ذي زرع)، فضحك الأمير، وأنعم عليه بعطية.

(٣٣١)

قال رجل لأبي العيناء: (أتأمر بشيئاً؟)، فقال: (نعم بتقوى الله، وحذف الألف من شيئاً!!).

(٣٣٢)

ويروى أنه دخل يوماً على الخليفة المتوكل فى قصره المعروف بالجعفري.. فقال له المتوكل: ماذا تقول فى دارنا هذه؟.

فقال أبو العيناء: إن الناس بنوا الدور فى الدنيا، وأنت بنيت الدنيا فى دارك، فاستحسن الخليفة إجابته.

(٣٣٣)

عاصر أبو العيناء الجاحظ وبينهما سجال ومواقف كثيرة لا تخلو من الألمعية والذكاء و الظرف والفكاهة.

منها على سبيل المثال ما رواه الخطيب البغدادي من أن صديقا قد جاء إلى أبى العيناء يطلب واسطة إلى والي البصرة ،فقال أبو العيناء للجاحظ: (طلب مني صديق لي أن أسألك أن تكتب له خطاب توصية إلى والي البصرة)، فكتب له الجاحظ الخطاب، وختمه ثم أرسله إلى أبي العيناء، فلما تسلمه أبو العيناء أحبّ أن يرى ما كتبه الجاحظ، فقال لرجل عنده: (افتحْه واقرأه عليّ) ، فإذا فيه: (هذا كتابي إليك.. طلبه مني من لا أخافه لمن لا أعرفه، فافعل في أمره ما تراه، والسلام)، فغضب أبو العيناء، ونهض إلى الجاحظ، فقال: (أعرّفك باعتنائي بهذا الصديق، فتكتب له مثل هذا؟!)، فقال الجاحظ: (لا تنكر ذلك، فإنها أمارة بيني وبين والي البصرة إذا عُنيت برجل)، فقال أبو العيناء: (بل أنت ولد زنا)، قال: أتشتمني؟، فقال أبو العيناء: (لا. إنها أمارة لي عند الثناء على إنسان) .

(٣٣٤)

وداعبه المتوكل ذات مرة فقال: إن سعيد بن عبد الملك يسخر منك. فقال أبو العيناء: «إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون».

(٣٣٥)

وقدم صديق عليه ذات مرة.. فدعاه إلى الطعام.. وجعل الصديق يروى ويكذب.. فالتفت إليه أبو العيناء وقال: نحن كما قال الله تعالي: (سماعون للكذب أكالون للسحت)!.

(٣٣٦)

سئل أبو العيناء عن حماد بن زيد بن درهم وعن عماد بن سلمة بن دينار فقال بينهما في القدر ما بين أبويهما في الصرف.

ومن المعروف أن قيمة الدرهم أقل من قيمة الدينار بكثير.